

٩ - سورة التوبة

مدنية وآياتها تسع وعشرون ومائة

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝﴾ .

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البراء بن عازب: آخر آية نزلت «يُفْتَتِنُكَ قُلُوبُ اللَّهِ يَفْتِكُمُ فِي الْكَلَالَةِ»، وآخر سورة نزلت: براءة^(١)، وإنما لم يسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه. وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن يتأدي في الناس: «براءة من الله ورسوله»، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، كما سيأتي بيانه. فقله تعالى: «براءة من الله ورسوله» أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله «إلى الذين عاهدتكم من المشركين» فسبحوا في الأرض أربعة أشهر. اختلف المفسرون هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: «فأتواهم عهدهم إلى مدتهم» الآية، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته؛ وهذا أحسن الأقوال وأقربها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله.

وقال ابن عباس: حذ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسبحون في الأرض حيث شاءوا، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام. وقال مجاهد: «براءة من الله ورسوله» إلى أهل العهد خراعة ومدلج، ومن كان له عهد أو غيرهم، فقف رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك»، فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، فطافا بالناس في ذي الحجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فأذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر، فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر تخلص من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا.

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۖ إِن يَتَّبِعْ فَمَنْ حَبْرَ لَكُمْ ۖ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ .

يقول تعالى: وإعلام «من الله ورسوله» وتقدم، وإنذار إلى الناس «يوم الحج الأكبر» وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعاً «أن الله بريء من المشركين ورسوله» أي بريء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: «فلن تبتم» أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال، «فهو خير لكم وإن

(١) أخرجه البخاري عن البراء بن عازب.

توليتكم أي استمررتكم على ما أنتم عليه ﴿فاعلموا أنكم خير ممجزي الله﴾ ، بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته ﴿وبشر الذين كفروا بعدذاب اليم﴾ أي في الدنيا بالمخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. روى البخاري عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر، من أجل قول الناس الحج الأصغر. فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك^(١). وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: كنت مع (علي بن أبي طالب) حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنادي حتى صحل صوتي.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه براءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي»، فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢). وعن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه براءة قال: يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب، قال: «لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت» قال: فإن كان لا بد فسأذهب أنا، قال: «انطلق فإن الله يشيت لسانك ويهدي قلبك»، قال: ثم وضع يده على فيه. وقال محمد بن إسحاق: نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس فقيل: يا رسول الله لو بعثت إلى أبي بكر، فقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي»، ثم دعا علياً فقال: «أذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته» فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل ماضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن بالناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى.

عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة، وقال عمرو بن الوليد السهمي عن عباد البصري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: (سعيد بن المسيب) فأتيته، فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة، فقيل سعيد بن المسيب، فأخبرني عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عن من هو أفضل مني مائة ضعف (عمر) أو (ابن عمر) كان ينهي عن صومه، ويقول هو يوم الحج الأكبر^(٣). والقول الثاني: أنه يوم النحر. قال الحارث الأعور: سألت علياً رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يوم النحر. وقال عبد الرزاق عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال عبد الله بن سنان خطبنا المغيرة بن شعبه يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حسن غريب.

(٣) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وطاوس وغيرهم.

الأكبر، واختاره ابن جرير، وروى عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟»^(١).

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَلَعَلَّ فِتْنَتَآ إِلَيْهِمْ وَعَهْدُكُمْ إِلَيْنَا﴾^(٢).

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسمح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عاهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث. ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعده إلى مدته؛ وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظهر على المسلمين أحداً، أي يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَتَدْبِعُوا أَوْسُوعُهُمْ وَأَفْعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هنا ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الآية، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس^(٢) في رواية العوفي عنه، أن المراد بها أشهر التنسير الأربعة المتصوص عليها بقوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾، ثم قال: ﴿فإذا انسלخ الأشهر الحرم﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمتنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة. وقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ أي من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾، وقوله: ﴿وخذلوهم﴾ أي وأسروهم، إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقبتهم وحصونتهم، والرصد في طرقتهم ومساكنهم، حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾، ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة، حيث حرمت قتالهم بشرط الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدائها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في «الصحيحين»: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» الحديث، وقال عبد الله بن مسعود: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له، وقال ابن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة. وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفنهن!

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا

(١) رواه ابن جرير قال ابن كثير: إسناده صحيح وأصله مخرج في الصحيحين.

(٢) وهو قول مجاهد وقائدة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو الأرجح.

الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دعاؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. قال أنس: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾. وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة. وقال ابن عباس في هذه الآية: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والمعيثاق، وأذهب الشرط الأول. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَثَىٰ بَعْدَ وَهْمٍ قَدْءَا﴾ وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِ عَلَيْهِ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ يَبْلُغُ الْأُمُورَ إِلَىٰ حَقِّهَا﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وإن أحد من المشركين﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿استجارك﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي القرآن تقرأه عليه، وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثم ابْلُغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتتشر دعوة الله في عياده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، فأرأوا من أعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر. فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول ميلعة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك﴾، والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر. وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِي يَتَرَفَعُونَ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَرَامِ ثُمَّ اسْتَغْنَوْا﴾

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرُ الْغَافِقِينَ

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرتهم إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرفف أين تقفوا، فقال تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ أي أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ يعني يوم الحديبية: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم ﴿فاستقيموا لهم﴾ إن الله يحب المتقين، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالوا حلفاءهم، وهم (بنو بكر) على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوه معهم في الحرم أيضاً. فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصبيهم والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم قسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتيسير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم (صفوان بن أمية) و(عكرمة بن أبي جهل) وغيرهما ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿كَتَبَ فَإِنْ يَتُوبُوا عَلَيْنَا لَا يَرْفُؤُوا إِلَيْنَا وَلَا ذِمَّةٌ يُؤْتِيهِمْ وَفَرْغُوا بِمَا رَزَمُوا فَأُولَٰئِكَ لَنَا ذِمَّةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِتُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى معرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة، قال ابن عباس: الإل القاربة، والذمة العهد^(١)، وقال مجاهد: الإل الله أي لا يرقبون الله ولا غيره، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر، وعن مجاهد أيضاً: الإل العهد، وقال قتادة: الإل الحلف.

﴿أَشْرَوْا بِمَا بَيْعْتُمْ اللَّهَ ثَمَنًا قَلِيلًا فَنَصَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْفُؤُونَ فِي مَوْثِقٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِتُونَ ﴿١٠﴾ إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَنُّوهُمْ فِي الْأَيْمَانِ الَّتِي لَفَوْا بِعَلْمُونٍ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى ذماً للمشركين وحنأً للمؤمنين على قتالهم: ﴿أشروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما انتهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴿تقدم تفسيرها وكذا الآية التي بعدها﴾.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا أَفْئَتَهُمْ فَإِنَّا بِمَعَاهِدِهِمْ نَكَصُونَ وَيَكْفُرُوا فَأَفْئَتَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَحْكُمُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول تعالى: وإن تكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم أيمانهم أي عهدهم ومرائيقهم ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي عابوه وانتقصوه، ومن هنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره ينقص، ولهذا قال: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال، قال قتادة: أئمة الكفر كأي جهل وعتبة وشبهة وأمية بن خلف، قال ابن مردويه: مر (سعد بن أبي وقاص) برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر، فقال سعد: كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر، والآية عامة وإن كان سبب نزولها في مشركي قريش والله أعلم.

﴿أَلَا تُنْذِرُونَ ﴿١٣﴾ قَوْمًا تَكْفُرُوا أَفْئَتَهُمْ وَكَانُوا يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ مِنْ دِينِهِمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً أَفْئَتَهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تُنْذِرُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ تَنْذِرُهُمْ يَعِذُّهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْكُمْ عَلَيْهِمْ رِفْقٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَيَذْهَبَ عَيْنٌ عَنْ قَوْمِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وهذا أيضاً تهيج وتخفيف وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾، وقال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ الآية، وقوله: ﴿وهم يدهوكم أول مرة﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان، وقوله: ﴿أنخسونهم قائله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾، يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون فإنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبي، ثم قال تعالى بياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد، مع قدرته على إهلاك العدو ﴿فقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم

(١) وهو قول الضحاك والدي كما قال تميم بن مقبل: أفد الناس خلفاً خلفوا: قطعوا الإل وأعراق الرحم.

عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة: «ويشف صدور قوم مؤمنين» يعني خزاعة، «ويغوب الله على من يشاء» أي من عباده «والله عليم» أي بما يصلح عباده، «حكيم» في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً.

﴿أَرْحَبْتَ أَنْ تُنْكِرُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَسْخُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١٦).

يقول تعالى: «أم حسبكم» أي ظننتم أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها الصادق من الكاذب، ولهذا قال: «ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يسخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة» أي بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصيح لله ولرسوله، فاكتمني بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يسممت أرضاً أريد الخير أيهما يلينني
وقال تعالى: «أحب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون»؟ وقال تعالى: «ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه» الآية، والحاصل: أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿يَا كَاذِبِينَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنَاتِ ثُمَّ يَأْتِيَنَّكُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِغَيْرِ أَعْيُنِنَا فَيَكُونُوا أُولَئِكَ يَرِثُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَخْرُجُونَ فِيهِ﴾ (١١٧).
﴿يَا كَاذِبِينَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنَاتِ ثُمَّ يَأْتِيَنَّكُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِغَيْرِ أَعْيُنِنَا فَيَكُونُوا أُولَئِكَ يَرِثُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي تَخْرُجُونَ فِيهِ﴾ (١١٨).

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرؤا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي ما دينك؟ لقال: يهودي، «أولئك حبطت أعمالهم» أي بشرتهم «وفي النار هم خالدون». ولهذا قال تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد. كما قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»، قال الله تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» (١١٩). وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله»، وعن أنس مرفوعاً: «يقول الله: وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي، وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالإسحار، صرفت ذلك عنهم» (١٢٠). وقال عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها، وقال المسعودي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» (١٢١). وقوله: «وأقام الصلاة» أي التي هي أكبر عبادات البدن «وآتى الزكاة» أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله: «ولم يخش إلا الله» أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه «ففى أولئك

(١) رواه أحمد والترمذي وابن مردويه والحاكم.

(٢) قال ابن عساکر: حديث غريب.

(٣) أخرجه ابن مردويه.

نفسى، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»^(١). وقد ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تابعتكم بالعينة وأخذتم بأفتاب البقر ورضيتم بالزروع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(٢).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَالِيَنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكُمْ كَذَّبْتُمْ فَلَمْ تَحْتَنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ يَبُوءُ اللَّهُ بِهِ بِغَدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله. وأن ذلك من عنده تعالى وتأييده وتقديره لا يعددهم ولا يعددهم، ونبيهم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم^(٣)، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ. ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده، وإن قل الجمع، ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾، وقد كانت وقعة حنين^(٤) بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن (هوازن) جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم (مالك بن عوف النضري) ومعه ثقيف بكما لها وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاة والنعم، وجاءوا بقضضهم وقضضهم! فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح. انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهاوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم، فعند ذلك ولّى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء، يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، ويقول في تلك الحال: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن يتادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفرأ عنه - فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: لبيك لبيك، وانعطفت الناس، فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع لبس درعه، ثم انحدر عنه وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شزيمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام أن

(١) انفرد بإخراجه البخاري.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له عن ابن عمر مرفوعاً.

(٣) أخرج البيهقي: أن رجلاً قال يوم حنين: لن تغلب من قلة، وكانوا اثني عشر ألفاً، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ويوم حنين...﴾ الآية.

(٤) حنين: اسم موضع بأوطاس، عرف باسم رجل اسمه: حنين بن قانية بن مهلائيل من العساليق، كما في معجم البكري.

يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من تراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»، ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وقمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجتذلة بين يدي رسول الله ﷺ.

وقال الإمام أحمد عن (يزيد بن أسيد) قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قانظ شديد الحر، فنزلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس ليست لأمني، وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حان الرواح، فقال: «أجل» فقال: «يا بلال»، فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك وأنا قداؤك، فقال: «أسرج لي فرسي»، فأخرج سرجاً دفناه من ليف ليس فيهما أثر ولا بطر، قال فأسرج فركب وركبنا، فصافقناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مديريين، كما قال الله تعالى: «ثم وليهم مديريين»، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله»، ثم قال: «يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله»، قال: ثم اقتحم عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شامت الوجوه» فهزمهم الله تعالى، قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وقمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض، كأمرار الحديد على الطست الحديد^(١). وفي «الصحيحين» عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أقررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(٢). قال تعالى: «ثم أنزل الله سكينته على رسوله» أي طمأنينته وثباته على رسوله ﷺ و«على المؤمنين» أي الذين معه «وأنزل جنوداً لم تروها» وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى ابن برثن، حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ، قال: فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شامت الوجوه ارجعوا، قال: فانهزمنا وركبوا أكثافنا، فكانت إياها.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً، فحادت بغلته، فمال عن السرج، فقلت ارتفع رفعك الله، قال: «ناولني كفاً من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم، فامتلات أعينهم تراباً قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك، قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم، فجاءوا وسوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون أدبارهم^(٣). وعن شبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عري، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحزمة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثاري منه قال: فذهبت لأجيته عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها المعجاج، فقلت: عمه ولن يخذله، قال: فجثته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان، فقلت: ابن عمه ولن يخذله، فجثته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف، إذ رفع لي شواظ من تار بيني وبينه كأنه برق قحفت أن يخمشنني، فوضعت يدي على

(١) رواه الإمام أحمد أحمد والحافظ البيهقي.

(٢) أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب.

(٣) رواه الحافظ البيهقي والإمام أحمد في مسنده بنحوه.

بصري ومشيت القهقري، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبة يا شيبة ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصري وهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «يا شيبة قاتل الكفار»^(١). قال محمد بن إسحاق عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل مشور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة، وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالربع وأوتيت جوامع الكلم»، ولهذا قال تعالى: «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين»، وقوله: «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم» قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقریب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيرهم بين سيهم وبين أموالهم، فاختاروا سيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردّه عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونقل أناساً من الطلقاء، لكي يتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة (مالك بن عوف النضري) واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
فكانه لبث على أشباله وسط المباءة خادر في مرصده

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَدَنِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢) ﴿قِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾^(٣).

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً، بنفي المشركين الذين هم نجس عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأ، وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن اسمعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، قال الله تعالى: «إنما المشركون نجس»، وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما ورد في «الصحيح»: «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب. وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ. وقوله: «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله»، قال محمد بن إسحاق: قال الناس: لتقطعن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: «وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله»^(٤) من وجه غير ذلك «إن شاء»، إلى قوله: «وهم صاغرون» أي هذا عوض ما تخرفتم من قطع تلك الأسواق، فعرضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من

(١) أخرجه الحافظ البيهقي.

(٢) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم: كان المشركون يجيئون إلى البيت بالطعام يتجرون فيه، فلما نهوا عن إتيان البيت، قال المسلمون: أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: «وإن خفتم...» الآية. وأخرج ابن جرير: لما نزلت: «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام...» شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام وبالمعاش؟ فأنزل الله الآية.

أعناق أهل الكتاب من الجزية، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى. ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة. وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ مِنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه، فلما جاءوا كفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا يتبعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية.

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيط وحر، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال، وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿مِنْ يَدٍ﴾ أي عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إغزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في «صحيح مسلم»: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية (عبد الرحمن بن غنم الأشعري) قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائنا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجده ما خرب منها، ولا نحبي منها ما كان خططاً للمسلمين، وأن لا تمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن نزل من مربنا من المسلمين ثلاثة أيام، نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا تشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجزم مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زيناً حيثما كنا، وأن نشد الزناتير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعائين ولا بعبثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن

نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: «ولا نضرب أحداً من المسلمين» شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق».

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكُ قَوْلُهُمْ بِأَتْوَاهِمَ ۖ جَنَّتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ أَفَكُذَّبُوا أَجَابُهُمْ وَضَعْنَهُمْ أَزْبَابًا ۖ وَبَرَأَ اللَّهُ مِنَ الْمَسِيحِ إِنَّكُمْ مَرَكِبٌ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من (اليهود والنصارى) لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والغريبة على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزير إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين، فقال: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم، ﴿يضاهون﴾ أي يشابهون ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قاتلهم الله﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أئني يوفكون؟﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟ وقوله: ﴿أتدخلوا أحبارهم وريهانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾، روى الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿أتدخلوا أحبارهم وريهانهم أرباباً من دون الله﴾ قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي ما تقول؟ أيعضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ أيعضرك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مفضوب عليهم والنصارى ضالون». وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿أتدخلوا أحبارهم وريهانهم أرباباً من دون الله﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَتْوَاهِمَ ۖ وَيَأْتِ اللَّهُ إِلَّا أَن يَكْمُرَ بُورَهُ ۖ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ ۚ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أن يطفئوا نور الله﴾: أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ثم قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ﴿ودين الحق﴾ هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ليظهره على الدين كله﴾: أي على سائر الأديان، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسبيل ملك أمتي ما زوى لي منها».

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلاً، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية^(١). وفي «المسند» أيضاً عن عدي بن حاتم قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت: إني من أهل دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك»، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم ألت من الركوبة وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمتنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده ليشمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتح كنوز كسرى بن هرمز» قلت كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها^(٢). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ الآية، أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله رجلاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»^(٣).

﴿يَتْلُوهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَثُرَ مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَا تَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ رَسُولَاتُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْثُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ لَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيَّرْتَهُمْ بِعَذَابِ آيَةِ (٣١) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ تَتَكْوَفُ بِهَا جِاهَتُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَكُفُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ (٣٢)﴾.

قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: ﴿لولا ينهاهم الرياتيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، وفي الحديث الصحيح: «لتركب سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟». والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية خراج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعرضهم الذل والصغار، وباؤوا بغضب من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ويصدون عن سبيل

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) أخرجه أحمد في المسند.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

الله أي وهم مع أكلهم الحرام، يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وقوله: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوكة وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز، فقال ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدي زكاته، وعنه قال: ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سيع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدي زكاته فهو كنز^(١)، وقال عمر بن الخطاب: أيما مال أدبت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤدي زكاته فهو كنز يكرى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض. وروى البخاري عن خالد بن أسلم قال خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية.

قال الإمام أحمد عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأَي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضح على بعير فأدركه وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله أَي المال نتخذ؟ قال: «قلياً شاكراً ولساناً ذاكرةً وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة». (حديث آخر): روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ الآية، كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا بدع لولده ما لا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفزع عنكم، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم»، قال فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنز المرأة؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فلقوا ما كنتم تكتزون﴾ أي يقال لهم هذا الكلام نيكياً وتقريعاً ونهكماً، كما في قوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكتزون لأنفسكم، ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عُدب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، وكانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرهما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكرى عبد يكنز فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حذته؛ وقال طاوس: بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهوره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار».

﴿إِنَّ صِدْقَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

(١) وروى هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة وغيرهم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم في المستدرک وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

وَالَّذِينَ الَّذِينَ فَلَا تَغْلِبُهُمْ فِيهِمْ فَتُكْفَرُ وَيُكْفَرُونَ الشِّرْكَ كَافَّةً كَمَا بَيَّنَّا لَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾

عن أبي بكر أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(١) الحديث. وعن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم»^(٢). وقال سعيد بن منصور عن ابن عباس في قوله: «منها أربعة حرم» قال: محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وثبت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقص، ولا نسي ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله تعالى إلى يوم القيامة»، وهكذا قال ههنا: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدأ الله ذلك في كتابه خلق السموات والأرض، وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله: «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسات النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر، كما ستبينه إذا تكلمنا على النسيء.

وقوله تعالى: «منها أربعة حرم» فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم وأما قوله ﷺ: «ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد، وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويستغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتماد به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً. وقوله: «ذلك الدين القيم» أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحدود بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: «فلا تظلموا فيه أنفسكم» أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب اليم»، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وقال ابن عباس في قوله: «فلا تظلموا فيه أنفسكم» قال: في الشهور كلها، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً وأعظم حرمانهن، وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم، وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمر ما

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه البخاري في التفسير بتمامه.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن مردويه.

يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر فعضلوا ما عظم الله، فإنما تعظيم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل، وقال محمد بن إسحاق: «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك، وهذا القول اختيار ابن جرير، وقوله: «وقاتلوا المشركين كافة» أي جميعكم «كما يقاتلونكم كافة» أي جميعاً «واعلموا أن الله مع المتقين».

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين: (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال: «فلا تظلموا فيهن أنفسكم» وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيد بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في «الصحيحين» أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فُلُّهُم لجأوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف، فحاصره أربعين يوماً وانصرف ولم يفتتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام. (القول الآخر): أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام»، وقال: «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص»، وقال: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين» الآية، وأما في قوله: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهييج والتحضيض، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداة منهم، كما قال تعالى: «الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص»، وقال تعالى: «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم» الآية، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تنمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم لأنه يغتر في الدوام ما لا يغتر في الابتداء، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخَلِّفُونَ عَمَّا إِتْرَاطُوا عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ رَبُّكَ لَهُمْ سَوْءَ أَقْمِيلِهِمْ إِنَّهُمْ لَا يَهْدِي الْقُرْآنُ الْكَلِيمُ ﴿٧٧﴾﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة والعصية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم، المانع لهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرم الله. قال ابن عباس: النسيء أن جنادة الكناني كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحله للناس، فيحرم صفرأ عاماً ويحرم المحرم عاماً، فذلك قول الله: «إنما النسيء زيادة في الكفر» يقول: يتركون عاماً وعاماً يحرمونه وعن مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس: إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لئما أقول، إنا قد حرمتنا المحرم وأخرنا صفر، ثم يجيء العام المقبل بعده، فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حرمتنا صفر وأخرنا

المحرم، فهو قوله: ﴿لِيُؤْطِثُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قال: يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاماً يحرمون عوضه صفرًا وبعده ربيع وبيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وبيع وبيع إلى آخرها فيحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ﴿لِيُؤْطِثُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينشئون إلى صفر أي يؤخرونه، وقد قدمنا الكلام على قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ﴾ الحديث؛ أي إن الأمر في عدة الشهور، وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما تعتمد جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل (القلنس)، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجياً وذا القعدة وذا الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً ليؤاطيء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله، والله أعلم^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوَسَّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنُؤْثِرُ بِكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ لَمَّا تَمَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ﴾ (٢٨) ﴿إِلَّا تَتَوَفَّوْا بِعِلْبِكُمْ عَذَابًا لِّمَا وَسَّيْتُمْ قَوْمًا بِغَيْرِكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَكَانَ اللَّهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾ (٢٩).

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت شمار والظلال في شدة الحر وحمازة القيقظ، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي إذا دعيت إلى الجهاد في سبيل الله ﴿اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾: أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب شمار ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾؟ أي ما لكم فعلتم هكذا رضاء منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة، ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغب في الآخرة فقال: ﴿فَمَا تَمَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، كما قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع»، وأشار بالسبابة^(٢). وقال الأعشى: ﴿فَمَا تَمَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كزاد الراكب، وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: اثنوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولي ظهره فيكى، وهو يقول: أف لك من دار إن كان كثير لك قليل، وإن كان قليل لك قصير، وإن كنا منك لفي غرور. ثم تواعد تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿إِلَّا تَتَوَفَّوْا بِعِلْبِكُمْ عَذَابًا لِّمَا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتناقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا بِغَيْرِكُمْ﴾: أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا بِغَيْرِكُمْ * ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ﴾. ﴿وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا﴾: أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتناقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَلَاثَ نِجَاتٍ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ

(١) أخرج ابن جرير: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفرًا، فينحلون فيه المحرمات، فانزل الله ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ...﴾ الآية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في المسند.

لَمْ يَكُنِ لَهُمْ لَكَ غُرَرٌ إِلَّا اللَّهُ مَعَكُمْ فَاسْتَلِ اللَّهَ سَكِينَةً عَلَيْهِ زَائِدَةٌ بِشُؤْرٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿إِلا تنصروه﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذا أخرجهم الذين كفروا﴾ ثاني اثنين ﴿أي عام الهجرة﴾ لما همّ المشركون بقتله، فخرج منهم هارياً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر، فلقياً إلى (غار ثور) ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي الله بجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أدي، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويشبهه ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» كما قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي تأييده ونصره عليه، أي على الرسول ﷺ^(٢)، وقيل: على أبي بكر، لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته، ﴿وأباده بجنود لم تروها﴾: أي الملائكة ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾ قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا الشرك، وكلمة الله هي ﴿لا إله إلا الله﴾. وفي «الصحيحين»: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، وقوله: ﴿والله عزيز﴾ أي في انتقامه وانتصاره، منيع الجنب لا يضام من لاذ بيباه، واحتمى بالتمسك بخطابه، ﴿حكيم﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر، فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وقال أبو طلحة: كهولاً وشباناً^(٣) ما سمع الله عذر أحد، ثم خرج إلى الشام، فقاتل حتى قتل. وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فقال: أرى ربنا استفرونا شيوخاً وشباناً، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نفرزو عنك، فأبى، فركب البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفعوه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير قدنفوه فيها. وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين، وقال الحكم: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ يقول: انفروا نشاطاً وغير نشاط؛ وقال الحسن البصري: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير. وقال الإمام الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة؛ وهذا تفصيل في المسألة؛ وقال السدي قوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ يقول: غنياً وفقيراً وقويماً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سمياً، فشكا إليه، وسأله أن يأذن له فأبى، فنزلت يومئذ: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس، فنسخها الله فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا تصحوا﴾ والله ورسوله.

وقال ابن جرير عن أبي راشد الحمراني قال: وافيت (المقداد بن الأسود) فإرس رسول الله ﷺ جالساً

- (١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
- (٢) في الأشهر وروي عن ابن عباس وغيره أن الضمير يعود على (أبي بكر) لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته قال ابن كثير وهذا لا ينافي بتعدد سكينته خاصة.
- (٣) قال ابن عباس والحسن البصري وعكرمة ومقاتل والضحاك وغير واحد ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي شباناً وكهولاً.

على تابوت من ثوابت الصيارفة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أنت علينا سورة البعوث: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، وقال ابن جرير عن حبان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع (صفوان بن عمرو) وكان والياً على حمص، فرأيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبيه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل. ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً، فينمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ الآية، ومن هذا القليل ما رواه الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال أجديني كارهاً، قال: «أسلم وإن كنت كارهاً».

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيًّا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَأَبْتَغُوا إِلَيْكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَنْهُمْ الشُّقَّةُ وَبَدَأُوا بِاللَّهِ لَوْ اسْتَظَلَّمْنَا لَمْ تَجْعَلْ لَنَا مَكْرًا يُبَلِّغُنَا أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٢).

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذور أعذار ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي قريباً أيضاً ﴿لا تبغوا﴾ أي لا تكونوا جاءوا معك لذلك ﴿ولكن بعدت عنهم الشقة﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿وسيحلفون بالله﴾ أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الْإِيمَانُ الْكَذِبُ وَقَعَدُوا وَالْقَذِيبُ (١٣) لَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُكْفَرُوا بِأَنُؤْلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١٤) إِنَّمَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَانَتْ قُلُوبُهُمْ فَبُذِلُوا فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (١٥).

قال عون: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبه، فقال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ (١٣)، وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ الآية. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أي في إيداء الأعذار ﴿وتعلم الكاذبين﴾ يقول تعالى: «هلا تركتهم لما استأذنتك فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لا يستأذنتك﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ لأنهم يرون الجهاد قرية ولما ندبهم إليه بادروا واستلوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ إنما يستأذنتك أي في القعود ممن لا عذر له ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وارتابت قلوبهم﴾ أي شكت في صحة ما جنتهم به، ﴿فهم في ربهم يترددون﴾ أي يتحIRON،

(١٤) أخرج ابن جرير: اثنتان قبلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسارى فانزل الله: ﴿عفا الله عنك﴾ اللباب.

يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفِتْنَةِ ۚ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ زَادُوكُمْ إِلَّا خِالًا لِأَعْيُنِكُمْ يَتَقَوَّمُ عَلَى الْفِتْنَةِ وَيَنْكُرُ حَتَّى تَصْغُرَ عَلَيْهِمُ الْقُلُوبُ ۚ﴾ (١٧)

يقول تعالى: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ أي معك إلى الغزو ﴿لأعدوا له عدة﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي أبغض أن يخرجوا معكم قدراً ﴿فثبطهم﴾ أي أخرجهم، ﴿وقيل اقعدوا مع الفاعدين﴾ أي قدراً، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لأنهم جبناء مخدولون ﴿ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة﴾ أي ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وفيكُم سماعون لهم﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم، وكلامهم يستصحبونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد ﴿وفيكُم سماعون لهم﴾ أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة والسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين، وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم (عبد الله بن أبي ابن سلول) و(الجد بن قيس) وكانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وفيكُم سماعون لهم﴾، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾، فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد ثبباً﴾.

﴿لَقَدْ اتَّخَذَ الْفِتْنَةُ مِنْ قَبْلِ وَلَكُلُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (١٨)

يقول تعالى محرضاً لآتيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمت العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْقُوقُ أَثَدَّنَ لِي وَلَا تَقِيحِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩)

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿اثبتن لي﴾ في القعود، ﴿ولا تفتني﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم، قال تعالى: ﴿إلا في الفتنة سقطوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه (للجد بن قيس): «هل لك يا جد العام في جلاء بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله ﷺ أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك»، ففي الجد بن قيس نزلت هذه: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ (١٩) الآية: أي إن كان إنما يخشى

(١٩) أخرجه محمد بن إسحاق عن الزهري وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وكان الجد بن قيس من أشراف بني سلمة.

من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة لتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم، ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤِفْتُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَكَتَلُوا وَهُمْ قَرِيبُونَ﴾ (٥٠) ﴿قُلْ إِنْ تُصِيبُنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

يعلم تبارك وتعالى نيته ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك، ﴿وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرا من قبل﴾ (٥٠) أي قد احترزنا من متابعتك من قبل هذا، ﴿ويقولوا وهم فرحون﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه الثامة، فقال ﴿قل﴾ أي لهم، ﴿لئن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره، ﴿هو مولانا﴾ أي سيدنا وملجؤنا، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسينا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ نَرَبُّونَ بَنًا إِلَّا إِيَّاهُ الْحَسْبَىٰ وَنَحْنُ نَرَبُّكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَفِرُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢) ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا تَلِيقُونَ﴾ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ (٥٤).

يقول تعالى: ﴿قل﴾ لهم يا محمد، ﴿هل تربصون بنا﴾ أي تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسنيين﴾ شهادة أو ظفر بكم، ﴿ونحن نربص بكم﴾ أي ننتظر بكم ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ أي ننتظر بكم هذا بسبي أو بقتل، ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾، وقوله تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرها﴾ (٥٣) أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لن يقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يقبل منهم ﴿إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل، ﴿ولا يتفقون﴾ نفقة ﴿ولا وهم كارهون﴾، وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ: ﴿أن الله لا يمل حتى تملوا﴾ وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يقبل من المتقين.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَرِهَ لَهُمْ أَفْئُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥).

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾، كقوله تعالى: ﴿ولا تملن عينيكم إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾، وقوله: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن، وقوله: ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي ويريد أن يميتهم - حين يميتهم - على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم؛ عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

(١) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم: جعل المنافقون المتخلفون بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، ويقولون: إنه هو وأصحابه، فساءهم ذلك، فأزل الله: ﴿إن تصيبك حسنة...﴾ الآية.

(٢) في اللباب: أخرج ابن جرير: قال الجدي بن قيس: إن رأيت لم أصبر ولكن أعينك بمالي، فنزلت فيه: ﴿أنفقوا طوعاً أو كرها...﴾ الآية.

﴿وَيَقُولُونَ وَاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِشِرْكٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْعًا إِلَّاءَ إِلَهِهِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم واهلهم أنهم «يحلِفون بالله إنهم لمنكم» يميناً مؤكدة «وما هم منكم» أي في نفس الأمر، «ولكنهم قوم يفرقون» أي فهو الذي حملهم على الحلف، «لو يجدون ملجأ» أي حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به، «أو مفاوت» وهي التي في الجبال «أو مدخلا» وهو السرب في الأرض والتفق، «لولوا إليه وهم يجمعون» أي يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأمله لا يزال في عز ونصر ورفعة .

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْتَمِزُ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

يقول تعالى: «ومنهم» أي ومن المنافقين «من يلمزك» أي يعيب عليك «في» قسم «الصدقات» إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا «فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون» أي ينفضون لأنفسهم، قال قتادة: «ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمداً والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت، فقال نبي الله ﷺ: «ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي؟». وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان عن أبي سعيد في قصة (ذي الخويصرة) لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل، فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ثم قال رسول الله ﷺ: «قد رأه مقفياً: «إنه يخرج من ضئضئ»^(١) هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يفرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»، وذكر بقية الحديث. ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك «ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون» فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده، في قوله «وقالوا حسبنا الله»، وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره وترك زواجه، وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره .

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُعْتَصِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَىٰ لَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَقِيرِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ .

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين، وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية، هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: (أحدهما) أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة، (والثاني) أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف^(٢). وقال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم؛ وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال أحمد، قال عمر رضي الله

(١) أي من أصله ومعذنه أو من نسله.

(٢) منهم عمر وابن عباس وحذيفة وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهم.

عنه: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب؛ قال ابن علية: الأخلق المحارف عندنا والجمهور على خلافه، وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس، وقال قتادة: الفقير من به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما الفقراء فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مزة سوى»^(١). وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلّب فيهما البصر، قرأهما جلدتين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولا حظّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»^(٢)، وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمر والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يقطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً»^(٣). وأما العاملون عليها فهم الجبّة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت عن عبد المطلب بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس»^(٤). وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي ﷺ (صفوان بن أمية) من غنائم حنين، وقد كان شهيداً مشركاً، كما قال الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ^(٥). ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم مائة من الإبل، مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بدغية في تربتها من اليمن فقسّمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم»، ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر الشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل وسعيد بن جبير أنهم المكاتبون، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما، وقال ابن عباس والحسن لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب أحمد ومالك أي أن الرقاب أهم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً؛ وفي الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم: الخازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»^(٦). وفي «المسند» عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل يقربني

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي.

(٣) رواه الشيخان.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

(٦) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود.

من الجنة ويباعدني من النار، فقال: «أعتق النسيئة وفك الرقبة»، فقال: يا رسول الله أو ليسا واحداً؟ قال: «لا، عتق النسيئة أن تفرد يعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»^(١). وأما الغارمون فهم أقسام: فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم، لما روي عن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه»، فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك»^(٢). وأما «في سبيل الله» فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان. وعند الحسن: والحج من سبيل الله وكذلك «ابن السبيل» وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، لحديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيهدي لك أو يدعوك»^(٣). وقوله: «قريضة من الله» أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه «والله عليم حكيم»: أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، «حكيم» فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿فَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِرُونَ النَّاسَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَرْضَىٰ لِلَّهِ يُؤْمِنُ أَنَّ هُوَ اللَّهُ خَيْرٌ لِّكُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَرْضَىٰ لِلَّهِ يُؤْذِرُونَ النَّاسَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَرْضَىٰ لِلَّهِ يُؤْمِنُ أَنَّ هُوَ اللَّهُ خَيْرٌ لِّكُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَرْضَىٰ لِلَّهِ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه^(١) ويقولون «هو أذن» أي من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدّثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا، قال الله تعالى: «قل أذن خير لكم» أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب، «يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين» أي ويصدق المؤمنين، «ورحمة للذين آمنوا منكم» أي وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: «والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم».

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَفِيٌّ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَيُرْسِلُ إِلَيْهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ جَهَنَّمُ خَلِيفَةً ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارتنا وأشرافتنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير، قال: فسمعا رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمير، قال: فسمي بها الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزّل الله الآية، وقوله تعالى: «ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله» أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله عز وجل أي شاقه وحاربه وخالفه «فإن له نار جهنم خالداً فيها» أي مهاناً معذباً، و«ذلك الخزي العظيم» أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِلَيَّ اللَّهُ فَعَلَىٰ مَا تَحْذَرُونَ﴾^(٣).

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفتي علينا سرنا هذا، وهذه الآية شبهة بقوله تعالى: «وإذا جاؤوك حبوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير»، وقال في هذه الآية: «قل استهزؤا إن الله مخرج ما تحذرون» أي إن الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري.

(٤) قيل: هو عتاب بن قشير، وقيل هو نبتل بن الحارث.

سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَانَهُمْ﴾ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين.

﴿وَلَيْنَ كَانَتْهُمْ لِبَقُولٍ إِشْمًا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ لِيَإِذْنِ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ١٥﴾
 تَسْتَهْزِئُونَ قَدْ كُنْتُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ مَا يَنْقُذُ عَنْكُمْ تُكَذِبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ١٦﴾

قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا السنة، وأجبنا عند اللقاء، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون» إلى قوله: «كانوا مجرمين» وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن إسحاق: كان جماعة من المنافقين منهم (وديعة بن ثابت) ورجل من أشجع يقال له (مخشي بن حمير) يسرون مع رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: اتحسبون جلاد بني الأصفر يقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكانا بكم غداً مقرنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا»، فإن أنكروا فقل بلى قلت كذا وكذا فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي غفي عنه في هذه الآية (مخشي بن حمير) فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم البجامة^(٢). وقال قتادة: بينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصرنها؟ هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «عليّ بهؤلاء الشر» فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا»، فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب. وقوله: «لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» أي بهذا المقال الذي استهزأتم به، «إن نفع عن طائفة منكم تعذب طائفة» أي لا يعنى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضهم «بأنهم كانوا مجرمين» أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَتَّبِعُونَ الشُّكْرَ وَيَتَّقُونَ عَنِ الْمَعْزُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَذَابٌ مُهِيمٌ ١٨﴾

يقول تعالى منكرأ على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء «يأمرون بالمتكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم» أي عن الإنفاق في سبيل الله، «نسوا الله» أي نسوا ذكر الله «فنسيهم» أي عاملهم معاملة من نسيتهم، كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، «إن المنافقين هم الفاسقون» أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة، وقوله: «وعد الله المنافقين والكفار نار جهنم» أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، «خالدين فيها» أي ماكثين فيها مخلدين هم والكفار «هي حسيهم» أي كفايتهم في العذاب، «ولعنهم الله» أي طردهم وأبعدهم «ولهم عذاب مقيم».

﴿كَأَلَيْتَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَتَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةٌ وَأَقْتَرَّ أَمْوَالُكُمْ وَأُولَئِكَ فَاسْتَكْبَرُوا يَنْفُلُونَهُمْ فَاسْتَنْتَضَمْتُمْ بَيْنَكُمْ كَمَا اسْتَضَمَّتِ الْيَتِيمَ مِنْ قَبْلِكُمْ يَنْفُلُهُمْ وَخُصِمْتُمْ كَالَّذِي خَاسِرُوا أَزْلَمَ لَكُمْ حَبِطَتْ أَفْئِدَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١٩﴾

(١) ذكره المديني عن محمد بن كعب القرظي وغيره.

(٢) رواه ابن إسحاق.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، وقوله: ﴿يُخْلَقُهُمْ﴾ قال الحسن: بدينتهم، «ووغضتم كالذي خاضوا» أي في الكذب والباطل، «أولئك حبطت أعمالهم» أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة، «في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون» لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة، «كالدلين من قبلكم» هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، والذي نفسي بيده لتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه^(١). وفي الحديث: «والذي نفسي بيده لتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فمن؟» قال أبو هريرة: «الخلق الدين، ووغضتم كالذي خاضوا» قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم؟»^(٢).

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالنَّبِيُّنَ مِنْ أُمَّةٍ رُسُلِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٥).

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول «ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم»، أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول، «قوم نوح» وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام، «وعاد» كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، «وثمود» كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة، «وقوم إبراهيم» كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمرود لعنه الله، «وأصحاب مدين» وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابهم الرجفة وعذاب يوم الظلة، «والمؤتفكات» قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال: «والمؤتفكة أهوى»، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، «أتتهم رسلهم بالبينات» أي بالحجج والدلائل القاطعات «فما كان الله ليظلمهم» أي يهلكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة الغلل، «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَشَرٌ مِنْكُمْ بَرَرْتِ بِالتَّوْبَةِ وَيَتَذَكَّرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧٦).

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض» أي يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في «الصحیح»: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه. وفي «الصحیح» أيضاً: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وقوله: «ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»، كقوله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدهون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» الآية، وقوله: «ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة» أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، «ويطيعون الله ورسوله» أي فيما أمر وترك ما عنه زجر، «أولئك سيرحمهم الله» أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، «إن الله عزيز» أي يعز من أطاعه، فإن العزة لله ورسوله وللمؤمنين، «حكيم» في قسمته

(١) أخرجه ابن جرير عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير: وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياداً بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في (ثعلبة بن حاطب) الأنصاري، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال ممي ذهباً وفضة لسارت» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالا»، قال: فاتخذ غنماً، فنتت كما ينمي الذود، فضاعت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمي كما ينمي الذود، حتى ترك الجمعة، فطلق يتلقى الركبان يوم الجمعة لیسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا يا رسول الله اتخذ غنماً فضاعت عليه المدينة فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة»، وأنزل الله عز وجل نأوه: ﴿يَخُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مرا بشعلبة وبغلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما»، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا! انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي، فانطلقا، وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فمزلهما للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها، قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة، فأخذاهما منه، ومرا على الناس، فأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رأهما قال: «يا ويح ثعلبة»، قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الآية. فهلك ثعلبة في خلافة عثمان^(١). وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ الآية: أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلالهم الوعد وكذبهم، وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سُرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه أعلم بضمائرهم، وإن أظهرنا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧١).

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزهم في جميع الأحوال، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مرء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل^(٢) على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء

(١) أخرجه ابن جرير بتمامه وفيه أن رسول الله ﷺ لم يقبل صدقته في حياته فلما قبض ﷺ عرضها على أبي بكر فلم يقبلها ثم عرضها على عمر فلم يقبلها حتى هلك في زمن عثمان، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم بنحوه.

(٢) أي نواجر أنفسنا في الحمل، وفي رواية عنده في التفسير: نتحامل، أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة.

كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ الآية. وقال ابن عباس: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع. وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات (عبد الرحمن بن عوف) تصدق بأربعة آلاف درهم، و(عاصم بن عدي) أخو بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده (أبو عقيل) حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأقرغه في الصدقة، فتضاحكوا به، وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل. وقال الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً»، قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت» ويات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال يا رسول الله: أصبت صاعين من تمر، صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي، قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم﴾^(١) الآية وقوله: ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزء من جنس العمل.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ صَغَرُوا بِإِلَهِهِمْ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِينَ﴾^(٢).

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم؛ وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها؛ وقيل: بل لها مفهوم كما روي لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إن ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرون لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم»، وقال الشعبي: لما ثقل (عبد الله بن أبي) انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي يحتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه، فانطلق معه حتى شهده، وألبسه قميصه، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه؟ فقال: «إن الله قال: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾، ولأستغفرون لهم سبعين وسبعين وسبعين»^(٣).

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٤) قَاتِلُوا قِيلَ وَكَانُوا كَرِهًا لِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٥).

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾ معه ﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا﴾ - أي بعضهم لبعض - ﴿لا تنفروا في الحر﴾، وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والشمار، فلماذا قالوا: ﴿لا تنفروا في الحر﴾، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل﴾ لهم ﴿نار جهنم﴾ التي تصيرون إليها

(١) أخرجه الحافظ البزار.

(٢) رواه ابن جرير بسنده.

بمخالفتكم ﴿أشد حراً﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حراً من النار، كما قال رسول الله ﷺ: «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: «ففضلت عليها بتسعة وستين جزءاً»^(١)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت في البحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»^(٢)، وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم»، وعن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ «ناراً وقودها الناس والحجارة»، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل لا يضيء ليلها»^(٣)، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة. وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُفٍّ * نَزَاعَةٌ لِلشَّوْىِ *﴾ وقال تعالى: ﴿يَصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمِ * يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودِ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ *﴾ وقال تعالى: ﴿صُوفَ نَصْلِهِمْ نَاراً كَلِمَةً تَنْفَجَّتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ *﴾ وقال تعالى هنا: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾^(٤) أي لو أنهم يفقهون ويقهمن لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الشاعر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ الآية، قال ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً، وقال الحافظ الموصلي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فباكوا، فإن أهل النار يكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم، كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتفرح العيون، فلو أن سفناً أخرجت فيها لجرت»^(٥).

﴿فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَفْذَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾^(٦).

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَفْذَوْكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي تعزيراً لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَقَلْبِ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة، وقال قتادة: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي مع النساء، قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال:

(١) رواه البخاري ومسلم ومالك عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد قال ابن كثير: إسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك.

(٤) في اللباب: أخرجه ابن جرير: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك، فقال رجل من بني مسيلة: لا تنفروا في الحر، فنزلت: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ...﴾ الآية.

(٥) رواه ابن ماجه والحافظ الموصلي.

فاقعدوا مع الخوائف أو الخالفات، ورجع قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِيفُونَ﴾ (٩٨).

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه؛ وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين، كما قال البخاري عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وسأزيده على سبعين»، قال: إنه منافق، قال: فصلي عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾^(١). وعن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما توفي (عبد الله بن أبي) دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله أعلیٰ عدو الله (عبد الله بن أبي) القاتل يوم كذا وكذا. يعذ أيامه؟ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا كثرت عليه قال: «آخر عني يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لي: «استغفر لهم» الآية، لو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له لزدت»، قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فمجبث من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية، فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل^(٢)، وروى الإمام أحمد عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك إن لم تأت له لم نزل تعير بهذا، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته، فقال: «أفلا قيل أن تدخلوه»، فأخرج من حفرته، وثقل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه. وقال البخاري: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل في قبره، فأمر به فأخرج، ووضع على ركبتيه، ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم.

وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حب يهود» قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبنني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾^(٣) الآية، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال قتادة: كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها، فإن أئني عليها خيراً قام فصلي عليها، وإن كان غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يصل عليها؛ وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها (حذيفة بن اليمان) لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: (صاحب السر) الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري.

كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل، كما ثبت في «الصحاح»: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»، وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»^(١).

﴿وَلَا تَجِدَكَ أُمَّؤُكُمُ إِلَّا يَرْغِبُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد والمنة.

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا وَجَّهْتُهَا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذِلَّةَ الْقَوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَتِيلِينَ﴾ (٨٦) ﴿رَبُّوهُمَا أَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكليين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا: «فإننا نكون مع القاهدين» رضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً كما قال تعالى عنهم: «فإنما جاء الخوف رآيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد» أي علت الستهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، كما قال الشاعر:

أفي السلم أعياراً جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك؟

وقال تعالى: «فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغمشي عليه من الموت فأولى لهم»، وقوله: «وطبوع على قلوبهم» أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، «فهم لا يفقهون» أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿لَكِنَّ الرِّسَالَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسُكَ فَهُمْ الْقَتِيلُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَنفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسُكَ فَهُمْ الْقَتِيلُونَ﴾ (٨٨) ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٨٩).

لما ذكر تعالى ذنب العتاقين، بين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال: «لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا» لبيان حالهم ومآلهم، وقوله: «وأولئك لهم الخيرات» أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿رَبَّنَا الْمَعذُورُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ يُؤَدُّهُمْ وَنَعْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَبُيْتُ إِلَيْكَ كَذِبُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠).

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة، قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بني غفار، وهذا القول هو الأظهر^(٢)، لأنه قال بعد هذا: «وقعد الذين كذبوا الله ورسوله» أي لم يأتوا فيعتذروا، وقال مجاهد: «وجاء المعذرون من الأعراب» قال: نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله، وكذا قال الحسن وقناة.

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

(٢) روى الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وجاء المعذرون» بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر وقراءة الجمهور بالتشديد.

ثم أوعدهم بالمعذاب الأليم فقال: ﴿يُعَذِّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرَمِيِّ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُفْقَرُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ فَبِئْسَ مِنَ الدَّمِيعِ حَرَجًا إِلَّا يَحْدُوا مَا يُفْقَرُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿لَمَّا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَنْتَفِذُونَكَ وَعَهُمْ أَتْرَابًا﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم بين تعالى الأعداء التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا يتفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاء في الجهاد، ومته العمى والعرج ونحوهما؛ ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقر لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجعوا بالناس، ولم يشطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني، وروي عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب براءة، فإني لو اضع القلم على أذني، إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ الآية. وقال ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاهته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم: «والله لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم ييكون، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ نزلت في بني مقرن من مزينة، كانوا سبعة نفر، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتُهُمْ فَبِئْسَ مِنَ الدَّمِيعِ حَرَجًا﴾ ألا يجدوا ما يتفقون؟. وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتهم سيراً إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حبسهم العذر»^(١). وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتهم طريقاً إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض»^(٢)، ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَسْتَفِذُونَ إِلَيْكُمْ إِنْ رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عَذَابِ الْعَذَابِ فَيُتَنَبِّهَكُمْ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤) سَتَلْقَاوْنَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرَضُوا عَنْهُمْ فَاعْرَضُوا عَنْهُمْ إِنْهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهُمْ مِنْكُمْ حَرَجًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِزَمَرُوا عَنْهُمْ فَبِمَا تَرَاهُمْ عَنْهُمْ لَكُمْ اللَّهُ لَا يَرْمِي عَنِ الْقَوْرِ الْقَتِيلِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرا وشرها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتمرصوا عنهم، فلا تؤنبوهم، فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم ﴿إِنْهُمْ رَجَسٌ﴾ أي خبث نجس بواطنهم

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك.

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه.

واعتقاداتهم، وماؤاهم في آخرتهم جهنم. ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُؤْتَى مَغْرَمًا وَيَنْزِعُ يَدَهُ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَيْهِمْ نَارُ اللَّهِ تَابِعَةً لَتَوَّاهُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُؤْتَى فِتْنَةً عَنْكَ فَرَّقَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ وَصَلَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَّا يَتَّخِذَ لَهْمُ سَيِّدًا لَهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩).

أخبر تعالى أن في الأعراب كفراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وأجدرو﴾ أي أخرى ﴿ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾، كما قال الأعمش: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم (تهاوند) فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لثريبي، فقال زيد: ما يريبك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال، فقال زيد: صدق الله: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدرو ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾. وفي الحديث: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن» (١). ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البيعة من أهل القرى. لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكننا والله ما نفيل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك» (٢) «إن كان الله نزع منكم الرحمة؟» وقال ابن نميرة: «من قلبك الرحمة». وقوله: ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حكيم﴾ فيما قسم بين عباده، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته. وأخبر تعالى أن منهم: ﴿من يتخذ ما ينفق أي في سبيل الله «مغرمًا» أي غرامة وخسارة، «ويترخص بكم الدوائر» أي ينتظر بكم الحوادث والآفات، «عليهم دائرة السوء» أي هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، «والله سميع عليم» أي سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، وقوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويتفنون بذلك دعاء الرسول لهم، ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم، «سيدخلهم الله في رحمته إن الله خفور رحيم».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْقُرْآنِ وَالْآخِرِ وَالَّذِينَ تَبِعُواهُم بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢٠).

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم بما أعد لهم من جنات النعيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال الحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، قيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر رضي الله عنه، فإن الطائفة المخدولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم،

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) وفي البخاري أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة.

عياداً بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِفُونَ مِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ لَا يَلْمِزُكَ مِّنْ تَعْلَمُهُمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون. «مردوا على النفاق» أي مروا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله أي عتا وتجبر، وقوله: «لا تعلمهم نحن نعلمهم» لا ينافي قوله تعالى: «ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم»، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا لأنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التبيين، قال مجاهد في قوله: «سبعهم مرتين» يعني القتل والسبي، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، «ثم يردون إلى عذاب عظيم»، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وقال ابن زيد: أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا» فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار، «ثم يردون إلى عذاب عظيم» قال: النار.

﴿وَأَخْرَجُوا عَنَّا زَكَرِيَّا وَأَخْرَجْنَا مَسْحُورًا﴾.

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزو تكذيباً وشكاً، شرع في بيان حال المذبذبين الذين تأخروا عن الجهاد تسلاً مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» أي أقرروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذبذبين الخطائين، وقد قال ابن عباس: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا ألا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، وروى البخاري عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتنعاني فأنهيا بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقتنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزلتك، قالوا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم».

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم^(١). ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة أن دفع الزكاة إلى

(١) في اللباب: أخرج ابن جرير: وجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا، فتصدق بها واستغفر لنا، فقال: «ما أمرت أن أخذ من أموالكم شيئاً» فانزل الله: «خذ من أموالهم» الآية. وعن قتادة: أن هذه الآيات نزلت في سبعة: أربعة منهم ربطوا أنفسهم، وهم أبو لبابة، ومرداس، وأوس بن خزام، وثعلبة بن وديعة.

الإمام لا يكون، وإنما كان خاصاً بالرسول ﷺ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، وقد رد عليهم أبو بكر الصديق وقتلهم حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عنفاً - وفي رواية عقلاً - كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فاتاه أبي بصدفته، فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله صل عليّ وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»، وقوله: ﴿إِنْ صِلَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ﴾، قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار، وقوله: ﴿وَالله سَمِيعٌ﴾ أي لدعائك «عليم» أي بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له، «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات»، هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحسها ويمحسها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾».

﴿وَقُلْ أَتَمَلَّؤُنَا فَسِيرَى اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَشَرُّهُنَّ إِلَى عَالِي الْقَبْرِ وَالْشَّهَادَةِ يَتَفَكَّرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١١٥).

قال مجاهد: هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّائِرَةُ﴾، وقال: ﴿وَحُضِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا كما قال الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صحرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»، وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»^(١). وقال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل: «اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»، وفي الحديث الصحيح: «إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته»، قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»^(٢).

﴿وَأَمَّا زَكَاةُ فَزَكُوا لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ إِنْ أَتَى نَفْسَهُمْ وَإِنَّا بِتُوبَتِهِمْ وَأَلَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ (١١٦).

قال ابن عباس ومجاهد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي عن التوبة، وهم (مرارة بن الزبيع) و(كعب بن مالك) و(هلال بن أمية)، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الشمار والظلال، لا شكاً ولا نفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجي هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الآية، «وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت» الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، «والله عليهم حكيم» أي عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو،

(١) أخرجه أحمد والطحاوي.

(٢) أخرجه أحمد عن أنس بن مالك.

﴿حَكِيم﴾ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَافًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَْسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى الْتَفَوُّتِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْشَرُونَ أَنْ يَبْظَهَرُوا اللَّهَ عِثَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له (أبو عامر الراهب) وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهروهم الله يوم بدر، شرق اللعين (أبو عامر) بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يعالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتنحهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم فخرج وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم (أبو عامر) في أول المباراة إلى قومه من الأنصار فحاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله قد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعا إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة. وذلك لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى (هرقل) ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومثاه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب بعدهم ويمينهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسالوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة؛ كما قال ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فاتي بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي الذين بنوه، ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي ما أردنا بنيانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فيما قصدوا وفيما نوا، وإنما بنوه ضاراً لمسجد قباء، وكفراً بالله وتفرقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق لعنه الله. وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن تقوم فيه: أي يصلي أبداً، ثم حشد على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من يوم بنيانه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً للكلمة

المؤمنين وموئلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»، وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشيّاً، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة والله أعلم. قال الإمام أحمد: عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الشاء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أديارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا. وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف^(١). وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، أحدهما قال: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا». وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»^(٢). وقال الإمام أحمد، عن أبي سعيد عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي»^(٣).

طريق آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن أنيس بن يحيى، حدثني أبي، قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان، رجل من بني خذرة، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد»، لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك يعني مسجد قباء. وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾، دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتزهد عن ملازمة القاذورات، وقال الإمام أحمد: عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ الروم فيها فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا، فليحسن الوضوء»، فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿والله يحب المطهرين﴾ إن الطهور

(١) منهم ابن عباس وهرة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري وسعيد بن حيان وقتادة وغيرهم.

(٢) رواهما الإمام أحمد رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعشى: التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك.

﴿أَمَنَ أَسْمَكُ بِبَيْتِكَ عَلَى تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرًا مِّنْ أَسْمَسَ بِبَيْتِكَ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِوَدٍّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بني مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإيماً بنيناهم هؤلاء بنيانهم «على شفا جرف هار»، أي طرف حفرة في نار جهنم، «والله لا يهدي القوم الضالين»، أي لا يصلح عمل المفسدين، قال جابر: رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ، وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجلاً حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه، وكذا قال قتادة. وقال خلف الكوفي: رأيت مسجد المتأقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة، وقوله تعالى: «لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم»، أي شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدين العجل حبّه، وقوله: «إلا أن تقطع قلوبهم»، أي بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد من السلف «والله عليم» أي بأعمال خلقه، «حكيم» في مجازاتهم عنها من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتُونَ وَيُقَاتِلُونَ فَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢١﴾﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم - إذ بذلوا في سبيله - بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم الله فأعلى ثمنهم، وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله عز وجل في عتقه بيعة وفي بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية، وقال (عبد الله بن رواحة) رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل، فنزلت: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ» الآية، وقوله: «يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون» أي سواء قُتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة، ولهذا جاء في «الصحيحين»: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»، وقوله: «وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن» تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه العظيمة وهي «التوراة» المنزلة على موسى، «والإنجيل» المنزل على عيسى، و«القرآن» المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقوله: «ومن أوفى بعهد من الله» فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله: «ومن أصدق من الله حديثاً»، «ومن أصدق من الله قيلاً»، ولهذا قال: «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» أي فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العهد، وفي بهذا العهد، بالفوز العظيم والتعظيم المقيم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ إِلَىٰ الْجَنَّةِ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَالَهُمْ خَفِيفًا أَلْتَمَاسًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَجَرِّدُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة،

«التائبون» من الذنوب كلها، التاركون للمقاحش، «العابدون» أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، ومن أخصها الحمد لله، ولهذا قال: «الحامدون»، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، قال: «السائحون» كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: «سائحات» أي صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة؛ ولهذا قال: «الراكعون الساجدون»، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: «ويُرشِدُ الْمُؤْمِنِينَ» لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به. والسياسة يراد بها الصيام، فقد مثل النبي ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»، وهذا أصح الأقوال وأشهرها. وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال ابن أسلم: هم المهاجرون، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواحق الجبال، والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال»^(١) ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن، وقال ابن عباس في قوله: «والحافظون لحدود الله» قال: القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري، وعنه قال: لفرائض الله، والقائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٢٢ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَرَاءَىٰ مِنْهُ إِنَّا إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَسِبٌ ١٢٣﴾

لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: «أي عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب! فقال النبي ﷺ: «لاستغفرون لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم»، قال: ونزلت فيه: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»^(٢). وقال الإمام أحمد، عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وقدها بالأب والأم وقال: يا رسول الله ما لك؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيناها رحمة لها من النار، وإنني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأصاحي بعد ثلاث، فكلوها وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشرية في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً».

وقال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فانبعثه فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناداه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا

(١) شعف الجبال: أي رؤوس الجبال.

(٢) أخرجه الشيخان وأحمد عن ابن المسيب.

فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك، قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمة، وإنني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي»، ثم أوردته من وجه آخر وفيه: «وإنني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل علي: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَاللَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

وقال ابن عباس في هذه الرواية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، وقال قتادة في الآية: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذمم، أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إنني لاستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية وقال الثوري عن ابن عباس: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعوه بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ إلى قوله «تبرأ منه»، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «أذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني»، فذكر تمام الحديث. وقال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو الله، وكذا قال مجاهد والضحاك، وقوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهِ حَلِيمٌ﴾، قال ابن مسعود: الأواه الدعاء؛ وقال ابن جرير: قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: «المتضرع»، وقال الثوري: سئل ابن مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم أي يعباد الله، وقال ابن عباس: الأواه الموقن، بلسان الحبشة. وعنه: الأواه المؤمن. وقال سعيد بن جبير والشعبي: الأواه الحفيظ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه، وعن مجاهد: الأواه الحفيظ، الرجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً، ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله. وقال ابن جرير: إن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أواه»، وقال أيضاً عن ابن عباس أن النبي ﷺ دفن ميتاً فقال: «رحمك الله إن كنت لأواهاً» يعني تلاءم القرآن، قال ابن جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إنه الدعاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِياً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيماً﴾ فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهِ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُجِيبَ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ يَكْفِي نُصْرَهُ عَنِ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَالِدٌ وَتُؤْتُونَ اللَّهَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمُشْرِكِينَ وَلَئِنْ لَمْ يَنْهَ اللَّهُ عَنِ الْفِتَنِ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَبِئْسَ مَا يَكُونُ لِلْمُتَقِينَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل، أنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ الآية، قال ابن جرير: يقول تعالى: وما كان الله ليقتضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به ورسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عن فتركوا، فاما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطعياً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَحْيِي وَيَمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال

المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه. وقال ابن أبي حاتم، عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟»، قالوا: «ما نسمع من شيء»، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيح السماء، وما تلام أن تنطق، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنَّةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَفَرُوا بِقُلُوبِهِمْ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في ستة مجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء، عن عبد الله بن عباس قال: قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فقلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبد، فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر^(١)، قال ابن جرير في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنَّةِ﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء، ﴿مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ﴾ كاد يزيغ قلوب فريق منهم، أي عن الحق، ويشك في دين الرسول ﷺ، ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم، ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ سَأَلَ عَنْهُمْ الْإِسْلَامَ رَبُّهُمْ فَقَالَ لَكُنُوا لِلَّهِ غُلَامًا يَخُفُّونَ إِيَّاهُ لَا يَأْمُرُونَ بِالْبُغْيِ وَالْكِبْرِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَنضَرِ اللَّهُ إِلَيْهِ وَيَتَّبِعْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

قال الإمام أحمد عن عبيد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقفنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة. وكان رسول الله ﷺ فلما يريد غزوة يفرها إلا ورى غيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان -.. قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل؟ وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت التمار والظلال، وأنا إليها أصغر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أعدو لكي أنجز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادي بهي حتى استمر بالناس

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الجذ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتعادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بشما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرنني بشي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطة غداً، واستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظفل قادماً راح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشي أبداً، فأجمعت صدقه. فأصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ف صلى ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال»، فجلست أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟» فقلت: يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطة بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك بصدق تجدد عليّ فيه إني لأرجو عقي ذلك من الله عز وجل؛ والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»، فقم، وقام إليّ رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، قال: والله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلاً، قالاً مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرأ لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فأجئتنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. ثم ذكر تنمة الحديث^(١).

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمَسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها وضاعت عليهم أنفسهم وضافت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها، فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فمؤقبا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً

(١) أخرجه الشيخان وأحمد، وله تنمة طويلة في توبة الله عز وجل عليه يرجع إليها في الصحيحين.

لهم توبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرأوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الحلة.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَ خَوْلَتِ بْنِ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يُمِيزُونَ بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَا مَخْصِيَّةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُلْقُونَ مَوْثِقًا مِنَ الْكُفَّارِ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كَيْتَابٌ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ لِعَمَلِ الْمُتَحْسِنِينَ﴾ (١١٥).

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر، لأنهم ﴿لَا يُمِيزُونَ بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَا مَخْصِيَّةً﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مَخْصِيَّةً﴾ وهي المجاعة ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً﴾ أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه، ﴿إِلَّا كَيْتَابٌ لَهُمْ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

﴿وَلَا يُلْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٦).

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي قليلاً ولا كثيراً، ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي في السير إلى الأعداء، ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم؛ وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما روي أن رسول الله ﷺ خطب فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليّ مائة يعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حث فقال عثمان: عليّ مائة يعير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاه من المنبر، ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها، فما على عثمان ما عمل بعد هذا. وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في توبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده، ويقول: فما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم؟ يرددها مراراً، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ما ازداد قوماً في سبيل الله بعداً من أمليهم إلا ازدادوا قريباً من الله.

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً. فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١١٧).

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، عن ابن عباس في الآية: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني عصابة، يعني السرايا ولا يسبوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا، وقد تعلمناه فتعمكت السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

الدين» يقول: ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم «لعلهم يحذرون». وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتتمونا، فوجدوا من أنفسهم من ذلك تحرجاً، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله عز وجل: «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة» يعنيون الخير «ليتفقهوا في الدين» وليستمعوا إلى ما أنزل الله، «وليتذكروا قومهم» الناس كلهم «إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون»، وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعداء، وكان إذا أقام وأرسل السرايا لم يحل لهم أن يتطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا غزا فنزل بعده قرآن وتلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: «وما كان المؤمنون ليفروا كافة»، يقول: إذا أقام رسول الله ﷺ «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة» يعني ذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً، ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله ﷺ فسرت السرايا وقعد معه معظم الناس. وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: «إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً»، «وما كان لأهل المدينة» الآية، قال المناقبون: هلك أصحاب البدو والذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل: «وما كان المؤمنون ليفروا كافة» الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَتْلُوا كُتُبَ اللَّهِ وَلَئِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَفْسٌ مِّنَ الْغَفَّةِ لَفَلَوْلَا ذِكْرُ اللَّهِ لَفَلَوْلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأدى عن الرسول ما حملة، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان، وإلى الفُرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقبصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، ثم لما مات أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار، فكسى الإسلام حلة سابعة، وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً بأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال»،

يعني أنه ضحوك في وجه وليه، قتال لهامة عدوه. وقوله: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تنزل الفتوحات كثيرة، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في البلاد، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله الأمر من قبل ومن بعد.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْ عَلَيْهِ إِيمَانًا فَإِنَّا الْيَوْمَ كَارِهُونَ ۚ﴾^(١) وَتَنبِئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا الْيَوْمَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَمٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَا لَهُمْ بَشِيرٌ ۖ

يقول تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فمن المنافقين ﴿من يقول أيكم زادت هذه إيماناً﴾ أي يقول بعضهم لبعض، وفي الآية الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عسى﴾، وهذه من جملة شقاتهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سبي المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ۖ﴾^(٢) وَإِنَّمَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ نَنبِّئَهُم بِمَا قَالُوا وَلِيَنْقَلِبُ إِلَىٰ نَفْسِهِم مَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى: ﴿أولا يرى هؤلاء المنافقون﴾ أنهم يفتنون، أي يختبرون، ﴿في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ أي لا يتوبون عن ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع، وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين، وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ أي تلفتوا هل يراكم من أحد ثم انصرفوا، أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يشتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: ﴿فما لهم من التذكرة معرضين﴾ كأنهم حمر مستفزة، وقوله: ﴿لم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقوله: ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يتصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه وتفور منه، فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۖ﴾^(٣) إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢﴾

يقول تعالى ممثلاً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾، وقال تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم﴾، قال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي منكم وبلغتكم، وقوله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، وشريعته كلها سهلة مسمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿حريص عليكم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذهب﴾^(٤). وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم، فقعده أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه

للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثله ومثل أمته كمثّل قوم سَفَر انتَهوا إلى رأس مَفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبيّنتما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرايتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تنبعونني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردتهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تنبعونني؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق والله لتبعنّه، وقالت طائفة: قد رضىنا بهذا نقيم عليه^(١). وقوله: ﴿يَا الْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الله كافي، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَبِالْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، ﴿هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش، مقهورون بقدرته الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره ناقد في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وقد روى أبو داود عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حَسْبِيَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه.